

آيات العادات (١)

من آيات العادات قول الشاعر

ذهب الجلال بريشها ورعاشها كالليل قبل صباحه المتباعد
وهو مبني على عادة كانت للملوك العرب ذكرها الجاحظ وذلك انهم كانوا يفرزون
الريش في أسنة جمالهم يحمونها بذلك يشرف اصحابها ومته يظهر لك المراد من قولهم
في احاديثهم « فرجع النابغة من عند النعمان وقد وهب له مائة من عصفيره بريشها » .
والعصافير ابل كانت للملوك نجائب وفي لسان العرب « وأعطاه مائة بريشها قيل كانت
الملوك اذا حبت حباء جمعوا في أسنة الابل ريشاً وقيل ريش نعامة ليعلم انها من حباء
الملك وقيل معناه برحائها وكسوتها وذلك لان الرحا لها كالريش » اهـ .

واما قول ذي الخرق الطهوي

لمارات إبلي حطت حمولتها هزلي عجائبا عليها الريش والخرق
قالت لا تبغني عيشاً تعيش به عما تلاقي فشر العيشة الرنق
وقول الآخر

كانها ريشة في غارب جرد في حيثما ضربته الريح ينصرف
فليس مما تقدم بل المعنى ان هذه الابل قد دبرت ظهورها لانهم كانوا اذا ظهرت ديرة
بظهرهم يفرزون في سنامه إما قوادم نسر اسود وإما خرقة سوداء لتفزع الغراب
فلا تسقط عليه لان الغراب مولع بنقر الدبر وعقرها حتى يبلغ الدأيات وهي عظام الكاهل
ولهذا سمى العرب الغراب بابن دأبة .
(ومنها) قول الحرث بن حازة البشكري في معلقته .

أعنتنا باطلاً وظلماً كما تعتر عن حجرة الريض الظباء
الحجرة بالفتح الناحية والمراد بهائنا موضع الغنم وأصل العتر الذبيح في رجب وكانت
العرب تذرهم لأطعتها فيقول احدم ان رزقني الله مائة شاة ذبحت عن كل عشرة شاة
في رجب ويسمى هذا الذبيح العتيرة والرجيبة وهو مما نهى عنه الاسلام . والبيت مبني
على عادة كانت لم وهي ان الرجل كان اذا ضن وبخل بما نذر صاد الظباء فذبحها عوضاً

(١) راجع ما كتبه في صفحة ٥١٠ من مجلد السنة الماضية

عن الشياء والمعنى أنكم تطالبوننا بذنوب غيرنا كما تذبح الظباء بدل الغنم . وقول كعب بن
زهير في رثاء جوي الزني

لنذكر والنذور لها وفاء إذا بلغ الخزاية بالغوها
كأنك كنت تعلم يوم بزت ثيابك ما سيلي سالبوها
فما عثر الظباء بجي كعب ولا الخمسون نصر طالبوها

معناه . أننا وفينا لك ولم نقنع في أخذ ثأرك بشي غيرني عما نذرته . كما تذبح الظباء بدل
الغنم وهو مثل ضربه . وكان جوي لما أصيب مر به رجل فقال اخا مزينة ما طرحت هذا
المطرح فوالله أنك من قوم ما يحمدونك فرفع رأسه اليه وهو يجود بنفسه . فقال أعطي
الله عهداً لا يقتل منكم خمسون ليس فيهم أعور ولا أعرج . وبلغ قوله قومه فوفوا له
بما قال

(ومنها قول عروة بن الورد انشد صاحب اللسان

وإني وإن عشت من خشية الردي نهاق حمار إني لجروع
عشر الحمار نهق أو نابع النهيق عشر نهقات وإلى بين عشر ترجيعات في نهيقه فهو
معشر ونهيقه يقال له التعشير . وكانت عادتهم أن الرجل منهم إذا ورد أرض وباء
وضع يده خلف أذنه فنهق عشر نهقات نهيق الحمار ثم دخلها لزمهم أنه إن فعل ذلك آمن
من الوباء . وكان عروة خرج في رفقة إلى خيبر فلما قربوا منها عشروا وإني هو أن
يفعل فعلهم .

(ومنها) قول امرئ القيس بن حجر من قصيدة يصف بها رجليه إلى قيصر

إذا قلت روحنا ارت فرائق على جامد وهي الأباجل ابترأ

على كل مقصوص الذنابي معاود بر يد السرى بالليل من خيل بربرأ

الفرائق الذي يدل صاحب البريد على الطريق ويربر قبيلة توصف خيلها بالصلاة
وقد يسأل لم كانت هذه الخيل مقصوصة الأذناب فالجواب أنه كان من عادتهم قص
أذناب بغال البريد ومنه قول الفرزدق

اتغضب إن أدنا فتية حرماً جهاراً ولم تغضب لقتل ابن خازم

ومنا منها إلا تقلنا دماغه إلى الشام فوق الشاجات الروام

تذبذب في الخلاة تحت بطونها محذفة الأذناب جامع المقاد

يعني بالشاجات البغال والمراد هنا التي لا يربد كما في كامل المبرد . وأما الخيل فكانت

خاصة ببرد ملوك العرب في الجمالية ولهذا ذكرها امرؤ القيس في بيته المتقدم لانه كان
ملكاً يريد الخيل اما تخصيصه خيل بربر بالذكر دون سواها من خيل العرب فقد قال
عنه ابن رشيقي في العمدة كانت الخيل البربرية تهلب اذنانها كالغزال لتدخل مداخلها
في خدمة البريد وليعلم انها الملك اه قات لعل ذلك كان لصلابتها كما قدمنا واما قص
اذنانها فربما كانت للاعلام بانها البريد ولا يبعد انه كان طلباً للتحفة في العدو كما كانوا
يعقدون شعر الاعراف والاذنان في الحرب قال الشاعر
عقدوا التراسمي في الطعان فلا ترى سيف الخيل اذ يعدون الا انزعوا
وقال المتنبي

ويوم جلبتها شعث النواصي معقدة السبائب للطراد

والسبائب جمع سبيب وهو شعر الذنب ويجوز ان يكون لسبب آخر لم اقف عليه .
ثم اعلم ان عادة قص الاذناب كانت خاصة عندهم بخيل البريد دون عامة الخيل فانهم
كانوا يستحبون طول اذنابها ويقدمون به كما قال النابغة
وكل مدجج كالليث يسمو على اوصال ذبال رفن
وكما قال امرؤ القيس

لها ذنب مثل ذنب العروس تسد به فرجها من دير

الفرج الفرجة التي بين الرجلين قال ابن رشيقي اراد طوله لان العروس تجر ذيلها
اما حياء واما من الخيل اه قات وعندها ان امرأ القيس لم يصب كل الاصابة في
هذا الوصف لانهم قالوا يكره من الفرس ان يكون قصير الذنب وان يكون طويلاً بطأ
عليه فليته جرى هنا على ما قال في معانيه

ضايح اذا استديره سد فرجه بضاف فويق الارض ليس بأعزل

فوصف ذنبه بالطول الا انه جعله فويق الارض لانه اذا بلغها وطئه برجله وربما
عثر به وذلك عيب ومنه يظهر لك ما في قول الجعفي من الخطأ في الوصف
ذنب كما سحب الرداء يذب عن عرف وعرف كالتناع المسجل
(ومنها) قول انس بن مدرك

اني وعقلي سليكاً بعد مقتله كالثور يضرب لما عافت البقر

لان العرب كانت اذا اورث البقر فلم تشرب لكدر الماء او قلعة العطش ضربوا
الثور ليقضم الماء لان البقر تبعه كما يتبع الشول الفحل وكما تنبع ان الوحش الحمار وكانوا

يزعمون ان الجن هي التي تصد الثيران عن الماء - حتى تمسك البقر عن الشرب فتهلك .
وقال الجوهري ان البقر اذا امتنعت عن شربها في الماء لا تضرب لانها ذات لبن
وانما يضرب الثور لتفزع هي فتشرب اه . وقيل اراد بالثور ثور الماء وهو الطحلب
فاذا اورد البقر القطعة من البقر فماتت الماء وصدها عنه الطحلب ضرر به ليفحص عن
الماء فتشربه فيكون ذكره هنا بعد البقر للالغاز به على السامع .

ومنه قول الاعمش

لكالثور والجن يضر بظهوره وما ذنبه ان عاقت الماء مشرباً
والجن هنا اسم الراعي لا الواحد من الجن في قول .
(ومنها) قول النابغة

لكنكفتني ذنب امرئ وتركته كذي العر يكوي غيره وهو رائع
هكذا رواه الاصمعي وروى ابن الاعرابي (حملت علي ذنبه وتركته) والعمر بضم
العين المهملة قروح تخرج في مشافر الابل وقوائها والبيت مبني على عادة كانت يفعلها
جهال الاعراب فكانوا اذا وقع العر في ابلهم اعترضوا بعمراً صحيحاً فكروا مشفره ونخذله
يرون انهم اذا فعلوا ذلك ذهب العر من ابلهم كما كانوا يفعلون على انفسهم كهوب
الارانب خشية العطب ويفقون عين نخل الابل لئلا تصيبها العين وهذا قول الاصمعي
وابي عمرو واكثر اللغو بين كما ذكر ابن السيد في الاقتضاب . وقيل انما كانوا يكونون
الصحيح لئلا يلقى به الداء لايبرأ السقيم . وقيل هذا امر لم يكن وانما هو مثل
لاحقيقة . وقيل اصله ان الفصيل اذا اصابه العر لفساد في لبن أمه عمدوا الى أمه فكروها
فنبراً ونبراً فصليها لان ذلك الداء انما كان يسري اليه في لبنها قال ابن السيد وهذا غريب
الاقوال وأقربها الى الحقيقة

(ومنها) قول عبد الله بن عطاء البرجمي

لو كنت جار بني هند تداركني عوف بن نعان او عمران او مطر
قوم اذا عقدوا عقداً لجارهم لم يسلموه ولم تسنح له البقر
وذلك لان العرب كانت تشام بالبقر لحدة قرونها

(ومنها) قول المثل بن عمرو التنوخي

يمعني لذة الشراب وان كان قطاباً كأنه العسل
حتى ارى فارس الصموت على اكساء خيل كأنها الابل

وليس المراد انه امتنع عن الخمر لمجرد حزنه او لاشتغاله بأخذ النار كما هو ظاهر المعنى بل هو مبني على عادة كانت لم وهي ان الواحد منهم اذا أصيب بوتر كان يعقد على نفسه نذراً في محاربة بعض اللذات

(ومنها) قول مرة بن محكان التميمي في وصف ناقة نحرته وهو من شعراء الحماسة

زيافة بنت زياف مذكرة لما نعوها لراعي مريحنا القبا

امطيت جازرنا على سناسنها فصار جازرنا من فوقها قنباً

يشنش اللحم عنها وهي باركة كأنفس كفاً قاتل سلباً

يشنش اي يكشف ويفرق قال التبريزي في شرحه قال ابو محمد الاعرابي لو قال قاتل لم قال وهي باركة ولم يذكر وهي مضطجعة وليس شيء من الحيوانات يسلخ الا مضطجعا قيل له من عادة العرب انهم اذا نحرروا الناقة ونشوا ان تضطجع رفدها الرجال من جانبها حتى تموت وهي باركة وذلك ان جزرم اياها وهي باركة مشوبة هو خير من جزرم اياها وهي مضطجعة على جنبها فاذا ماتت جزلوهما والجزل ان يحزوا اصل العنق ما بين المتكبين حتى يسترخي العنق ولم يقطعوه كله وقد فصلوه ثم يكتنفها الرجال فيكتنف السام رجلان وذلك ان يكون احدهما من جانبها من شق والآخر من الشق الآخر وآخران من قبل الكتفين وآخران من قبل العجز فثلاثة من جانب وثلاثة من جانب والساخ واحد وهي باركة

(ومنها) قول الفائق

اذا انتدى واحتبى بالسيف دان له شوس الرجال خضوع الجرب للطالي

كأنما الطير منهم فوق هامهم لاخوف ظلم ولكن خوف اجلال

احتبى الرجل اذا جمع ظهره وسانيه بعامة او بيديه ومنه الحديث الاحتباء احتباء العرب اي ليس في البراري حيوان فاذا ارادوا الله يستندوا احتبوا لان الاحتباء يمنعهم من السقوط وبصير لم كالجدار وقوله انتدى اي جلس في الزادي واليت مبني على عادة كانت لم ذكرها التبريزي في شرح الحماسة وهي انهم كانوا يحتبون بالسيوف عند عقد جوار او حرب او تسويد رئيس وما يجري هذا الجرى لان السيف في امثال هذه الاحوال ربما مست الحاجة اليه ولذلك قال جرير

ولا يخبى عند عقد الجوار بغير السيوف ولا يرتدى

وفي غير هذه الاحوال انما يحتبون بالاردية واشباهها

(ومنها) قول حاتم

أما والذي لا يعلم السر غيره ويحيي العظام البيض وهي رميم
لقد كنت اختار القرى طاول الحشا محافظة من ان يقال لثيم
واني لاستحيي يميني وبينها وبين في داجي الظلام بهيم
المعنى اني أقري الضيف وانا طاولي الحشا لاني اوثره على نفسي . وقد يسأل عن
مراده في البيت الثالث ولم كانت يأكل في الظلمة والجواب انه بلغ من اكرام العرب
للضيف ان احدهم ربما اطفأ النار وامسك عن الاكل واوم الضيف انه يأكل
ليشبع الضيف

(ومنها) قول الفرزدق

ولما تصافنا الاداة اجهشت الي غضون العنبري الجرائم
وجاء بجلمود له مثل رأسه ليسقي عليه الماء بين الصرائم
على حالة لو ان في القوم حاتم على جوده لفضن بالماء حاتم
التصافن اقتسام الماء بالخصص وكانت عادتهم اذا كانوا في فلاة وقل الماء ولم يوجد
معهم اناء صغير يقسمونه به تصافتوه بأن يضعوا في الاناء الكبير حصاة ويسكبون فيه
الماء بقدر ما يغمر الحصاة فيعطاه كل رجل منهم وقصة كعب بن مامة في المصافنة وتفضيله
القمري على نفسه حتى مات عطشا مشهورة وبسببها ضربوا به المثل في الجود وهو الذي
عناه جرير بقوله لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

وما كعب بن مامة وابن سعدى بأجود منك يا عمر الجواد

بقي في هذه الايات جرم لفظ حاتم والوجه رفعه على انه فاعل لفضن ولكنهم
رووه هكذا تبعا لقوافي بقية القطعة وخرجوه على انه بدل من الماء في وجوده ولم في
ذلك خلاف وكلام طويل الدبل ليس هنا موضع استيفائه ولو خبرت لكنت اختار
رفعه على الانواء تخلصا مما تكلفوه . وقال التنوخي في الاقصى القريب ويروى (ضنت
به نفس حاتم) ولا اشكال حينئذ والظاهر ان هذا اصلاح لارواية انتهى كلامه

(ومنها) قول النائل

لادر در رجال خاب سمعهم يستمطرون لذي الازمات بالعشر
اجعل انت يبقورا مسلة ذريعة لك بين الله والمطر
العشر بضم ففتح والسمع بفتحين ضربان من الشجر والبيقور البقر وكانت عادتهم

في الجاهلية الاولى انهم اذا استقوا جعلوا السلع والعشر سيفه اذئاب البقر وعراقبيها واشملوا فيها النار وحذروها من الجبال فتضج البقر ويمطرون على زعمهم وتسمى هذه النار نار الاستمطار . والبيت الثاني ذكر صاحب القاموس في مادة (سلح) ان فيه لسعة اغلاط لم يبينها هو ولا شارحه وبينها السيد عبد الرحمن الهادي على ماظهر له وذكرها صاحب خلاصة الاثر في ترجمته وكلها اوجلتها ليس من الغلط في شيء والله اعلم
القاهرة
احمد تيمور

كتاب الف با

وقعتا خريف السنة ثمانمائة على مخطوط عند الشيخ ناصر الخزومي العراقي من فضلا . جيل نابلس المعروفين عنوانه « الجزء الاول من كتاب الالباء في الف با » نسخة ناسخه في ثالث رجب الفرد لسنة الف وهو مما وقفه احمد باشا الجزائر على مدرسة جامعته نور احمدية في مدينة عكة « عكا » التي كان لها في ماضي الايام شأن مذكور ولا يوجد فيها الآن من امهات الكتب سوى بعض المطبوعات لان الثورات الاهلية التي طار شرارها في القرن الثالث عشر لتناوت تلك الكتب القيمة وفرقتها ايدي . باوتجد اليوم بقية صالحة منها مبعثرة في انحاء فلسطين .

وقد سألنا صديقنا صاحب المقتبس عن هذا الكتاب فأجابنا بأنه من انفس المؤلفات التي طبعت في مصر وبعث الينا بالجزئين الاول والثاني منه من مكتبة سليم افندي البخاري من علماء دمشق نطالعها ونكتب عنها مجتاً ولولا ان اعاد علينا هذا الطلب وشجعنا بقوله : ما كل مخطوط مهم وما كل مطبوع يعرفه الناس لما رأينا ننقل الى قراء المقتبس بعض فصوله وهذا مجال لان نشكر الاستاذ البخاري على حواشيه التي علقتها على الكتاب فجاءت كهقود نضيدة في جيد غادة حسناء اما المطبوع فقد طبع سنة ١٢٨٧ هجرية على نفقة جمعية المعارف التي طبعت ١١٠٠ كتاب من طرازه

قال الشيخ الفقيه المحدث الزاهد الحاج ابو الحجاج يوسف بن محمد البلوي عرف بابن الشيخ بعد البسطة والجدلة والعلولة اما بعد دام لنا ولكم السعد فاني عزمت بعد استخارة ذي الطول ومن بيده القوة والحول ورغبني اليه في السداد في العمل والقول على ان اجمع في هذه الاوراق كل معنى رق او راق مما هو عندي مستحسن